أسس النهضة والإصلاح الاجتماعي في فكر "مالك بن نبي

THE FOUNDATIONSOF THE RENAISSANCE AND SOCIAL REFORM IN THE THOUGHT OF MALIK BIN NABI

LES FONDEMENTS DE LA RENAISSANCE ET LA REFORME SOCIALE DANS LA PENSEE DE MALIK BIN NABI

فيروز صولة1 ، سميحة يونس 2*

1جامعة العربي تبسة، الجزائر

2جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج، الجزائر

تاريخ الإرسال:2018/10/23 تاريخ القبول: 2018/12/06 تاريخ النشر: 2018/12/19

ملخص:

استطاع مالك بن نبي أن يحلل الواقع الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي والسياسي للمجتمعات الإسلامية، وقبل تطرقه لوضع سبل النهضة والإصلاح وصف لنا أولا المشكلات المتعلقة بالحضارة ونهضتها، أهمها: القابلية للاستعمار، والاستلاب الفكري والثقافي، التقليد للأنظمة السياسية الغربية، إهمال الإنتاج، وسوء الانتفاع بالوسائل المتاحة، وانعدام الإدارة الحضارية .وينطلق مالك بن نبي من قيم ومبادئ الإسلام في تشخيصه للنهضة والإصلاح الاجتماعي، فالإسلام هو الوحيد القادر على فتح مجال الإبداع والحكمة في مجال الفكر والعمل، وتحقيق التوازن الروحي والمادي للإنسان .سنحاول في هذا المقال تحديد وإبراز أسس النهضة والإصلاح الاجتماعي كما جاءت في فكر مالك بن نبي .

الكلمات المفتاحية : النهضة؛ الإصلاح؛ الثقافة والتربية؛ التخلف الاقتصادي؛ النهضة الاقتصادية.

Abstract

Malik Bin Nabi was able to analyze the social, economic, cultural and political reality of Muslim societies, before turning to the ways of revival and reform, he first described the problems related to civilization and its growth, the most important of which are: predispositions to colonialism, intellectual and cultural assimilation, imitation of Western political systems, lack of interest in production and civilizational administration.

Malik bin Nabi started from the principles and values of Islam in his diagnosis of rebirth and social reform, because Islam is the only way to open up to the field of creativity and wisdom in the field of thought and action, and to realize the spiritual and material balance of man.

Keywords : Renaissance; reform; culture and education; economic underdevelopment; the economic renaissance

Résumé

Malik Bin Nabi a pu analyser la réalité sociale, économique, culturelle et politique des sociétés musulmanes, avant de s'intéresser à la mise en place aux voies de la renaissance et de la réforme, il a d'abord décrit les problèmes liés à la civilisation et à son essor, dont les plus importants sont : les prédispositions au colonialisme, l'assimilation intellectuelle et culturelle, l'imitation des systèmes politiques occidentaux, le manque d'intérêt pour la production et à l'administration civilisationnelle.

Malik bin Nabi est parti des principes et valeurs de l'islam dans son diagnostic de la renaissance et de la réforme sociale, car l'islam est l'unique issue nous permettant de s'ouvrir sur le champ de la créativité et de la sagesse dans le domaine de la pensée et de l'action, et de réaliser l'équilibre spirituel et matériel de l'homme.

Dans cet article, nous tenterons d'identifier et de mettre en évidence les fondements de la renaissance et de la réforme sociale selon la pensée de Malik bin Nabi.

Mots clés : La renaissance; la réforme; la culture et l'éducation; le sous-développement économique; la renaissance économique.

---

*المؤلف المراسل

مقدمة:

إن التغير الاجتماعي ظاهرة أساسية تتميز بها الحياة الاجتماعية، ينتج عنها حركية وتبدل في أجزاء معينة من البناء الاجتماعين ثقافية كانت أو سياسية أو تربوية أو دينية أو غيرها، وتختلف وتيرة التغير ونتائجه من مجتمع لآخر حتى وإن مرت بظروف مشابهة.

لقد تركت هذه الظاهرة الإنسانية تساؤلات كثيرة ومتعددة لدى المفكرين والفلاسفة ورجال الدين والسياسة ...، وحاولوا تفسير مسار هذا التغير ومغزاه واتجاهه ومستقبله، وآثاره على المجتمعات في فترات مختلفة لعصور متعاقبة.

ومن بين هؤلاء المفكرين في العالم العربي والإسلامي نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي المفكر المصلح الذي عايش فترة الاستعمار والاستقلال وتتلمذ على يد مفكرين وفلاسفة وعلماء دين، مسيرته العلمية وخبرته الحياتية جعلته يستوعب الكثير من القضايا الشائكة التي طالما تخبط فيها العالم العربي والإسلامي ولا يزال يتخبط فيها حتى اليوم، وقد انصب جل تفكيره على مبادئ النهضة وقيم الإصلاح الاجتماعي. إنها القضية الصعبة التي أثارت فكره حين بقيت مختلف الدول الإسلامية مجرد دول متخلفة في نظر الدول الغربية المستعمرة التي لطالما نهبت من خيراتها، واستفادت من التراكم المعرفي الذي كان سببا لازدهارها إبان العصور الإسلامية الوسطى.

وكما هو الحال في مجتمعنا الجزائري الذي أصبح يفتقر لمبدأ إصلاحي صارم يأخذ بزمام المبادرة الإصلاحية والنهضوية خاصة في العصر الحديث، الذي تطاولت فيه شبكات الفتن ولم يعد بإمكان البلدان المتخلفة أن تختار نمط محدد من التدابير التنموية إلا إذا انطلقت من الثقافة المحلية والمبادرة الذاتية.

ومن هذا المنطلق نود من خلال هذا المقال أن نوضح المنطلق الإصلاحي الذي وضعه مالك بن نبي للمجتمعات العربية والإسلامية عامة، والمجتمعات المستعمرة أو تلك التي عرفت أنواع مختلفة من الإحتلال الذي أحدث فيها تغيرا اجتماعيا تطوريا تراجعيا ونخص بالذكر المجتمع الجزائري ونجيب على الأسئلة التالية:

- ما مصدر الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي، وما علاقته بنشأته الاجتماعية والفكرية والدينية؟

- ما حاجة المجتمعات المستعمرة أو المستقلة حديثا إلى الإصلاح الاجتماعي؟ وهل عمل الإستعمار على تحديث هذه المجتمعات، أو تراجعها الحضاري حسب فكر مالك بن نبي ؟

- ما هي أهم الأسس الإصلاحية والنهضوية الاجتماعية في فكر مالك بن نبي؟

وللإجابة على هذه الأسئلة اعتمدنا المنهج الاستنباطي لبعض كتابات مالك بن نبي ومنها المترجمة إلى العربية، وكذا بعض الدراسات والنتاجات البحثية التي اهتمت بإنجازات مالك بن نبي في مجال الاصلاح والنهضة.

وإن كانت أعماله لا تنحصر في هذه الورقة البحثية إلا أننا حاولنا قدر الإمكان أن نوجزها في أهم محطاته الفكرية التي تجيبنا على تساؤلات الموضوع.

أولا: مالك بن نبي " ظروف نشأته وأثرها على أعماله الفكرية"

مالك بن نبي بن لخضر بن مصطفى بن نبي، ولد في الفاتح من شهر جانفي سنة 1905م بمدينة قسنطينة بأسرة ممتدة، تعلم منها الأخلاق الفاضلة في سن مبكرة على أجداده وجداته. عاش في ظروف فقيرة كسائر العائلات الجزائرية وقت الاستعمار الفرنسي، فدخول الاستعمار مدينة قسنطينة قد ساعد في ظهور ملامح التغير للعادات والتقاليد في المجتمع مثل احتفالات الزواج ومراسيم الدفن، وبعض مظاهر عدم التضامن بين أفراد المجتمع كذلك الانحراف الاجتماعي والأخلاقي مثل تعاطي الخمر...هذه المظاهر التي أثرت بالسلب على السكان الأصليين ما جعل مالك بن نبيي يهاجر إلى طرابلس مع "عمر" عمه في سن السادسة من عمره ،أما أبوه فانتقل إلى مدينة تبسه حيث لحقهما مالك بعد أن مات عمه الذي كان يكفله في قسنطينة.

دخل مالك بن نبي المدرسة الإبتدائية الفرنسية بتبسة وفي نفس الوقت كان يتردد على المدرسة القرآنية قبل الذهاب إلى المدرسة الإبتدائية؛ وعند رجوع جده من طرابلس أثر في شخصية مالك بن نبي خاصة وأن جده هو الآخر كان متأثر بشخصية "صالح بن مهنا " أحد رواد رجال الإصلاح بالجزائر في نهاية القرن 18م.

وفي سنة 1918م تخرج من المدرسة الإبتدائية بدرجة جيد، وواصل تعليمه بمدينة قسنطينة في مدرسة "بن الجليس" وأثناء دراسته سجل نفسه عند الشيخ "عبد المجيد" في المجلس من الساعة (7–8) صباحا حيث تأثر به كثيرا خاصة من حيث معاداته لبعض العادات والتقاليد السائدة في المجتمع الإسلامي كالطرق الصوفية، وكراهيته لتجاوز الإدارة الفرنسية، وتميز مالك بن نبي بمطالعته الكتب الإسلامية العربية أمثال مولود بن موهوب في التوحيد والسيرة ،الشيخ بن العابد وغيره مع ترقبه الأحداث هنا وهناك بين قسنطينة وتبسة. بعد نجاحه في المدرسة الجزائرية انتقل إلى فرنسا بمدرسة "قاوو" بعدها عاد للجزائر اشتغل عون قضاء بتبسة ثم اشتغل نفس المهمة بآفلوا التابعة لولاية وهران سابقا ،وفي تلك الفترة نشطت حركة الإصلاح في الجزائر على يد رؤساء جمعية علماء المسلمين وبعد عودته إلى فرنسا بقي مركزا مجهوداته في الدراسة مع متابعته الأحوال الجزائرية وفي العلم الإسلامي ككل بعدها ترأس نادي المؤتمر الجزائري وكان في تلك الفترة يزور بعض البلدان العربية منها القاهرة.

ومن نتائج فكره شددت كلها على إبراز مشكلة العالم المتخلف بما في ذلك العالم الإسلامي باعتبارها قضية حضارية أولا وقبل كل شيء.

وعليه فمالك بن نبي نشأ في أسرة محافظة وعاصر أحداث هامة في بلاده وفي العالم منها الحرب التحريرية، الأزمة الاقتصادية العالمية 1929م، الحربين العالميتين "الأولى والثانية"، كان مقامه الشاهد بالبصر والفكر، وسمحت له تنقلاته بالتعرف أكثر على حقيقة المجتمع، كما أن الفترة التي قضاها في فرنسا وتنقله لبعض البلدان العربية سمحت له بالتعرف على أسلوب الحضارة في الغرب وبالتالي الوقوف على جوانب القوة والضعف فيها، كما أن تنوع الدروس التي تلقاها سواء في إطار تكوينه أو خارجه والمجالس العلمية والثقافية والدينية المتعددة كان لها دور الحاسم في إثراء وتعميق تفكيره (لحرش موسى، 2006، ص– ص: 12–64).

ثانيا: الحاجة إلى النهضة والإصلاح الاجتماعي في المجتمع الاسلامي عند مالك بن نبي

قبل التطرق إلى أسس الإصلاح في فكر مالك بن نبي، يجب الإشارة إلى أهمية الأفكار التي وضعها مالك بن نبي في السابق وعلاقتها بالأوضاع الراهنة، أو بالأحرى دور هذه الأفكار في دفع عجلة التغيير والإصلاح والنهضة في عصرنا الحالي "عصر العولمة"، فالحديث عن المشاكل والأوضاع العامة التي تعيشها المجتمعات الإسلامية لا حصر لها، وعلى العموم يرى محمد عبد المنعم خفاجي أن المسلم في المجتمع الإسلامي المعاصر يجب أن يعي الحقائق التالية:

- على الأمم الإسلامية أن تقف أمام الغزو الفكري العام والشامل الذي يقوم به أعداء الإسلام لصرف المسلم عن دينه وعن تقاليده، وأخلاقه، وروحه، وسلوكه وجعله شخصا آخر ينهج نهجا أوروبيا.
- أن الجماعات المنحرفة إنما يغذيها المال الأوروبي والأمريكي من أجل نزيف الروح الإسلامية.
- أن الاستعمار الغربي السياسي والاقتصادي هو الذي يغذي حركة الغزو الفكري ويدعمها.
- أن العلمانية والصهيونية والشيوعية وحركات الاستشراق والتبشير كلها تعمل متكاتفة في سبيل دعم هذا الغزو، عن طريق نشر هذه الحركات الضالة في العالم الإسلامي وفي العقل الإسلامي (خفاجي محمد عبد المنعم، 2002، ص:38).

وفي هذا الصدد أيضا، يقول مالك بن نبي "لقد تدخل الاستعمار في كل شيء، حتى لا يترك فرصة لأي بعث إسلامي، وهو يتظاهر بأنه يحضر الشعوب المستعمرة، بينما نجد الواقع أنه أفقر المستعمرات بنهب أموالها واستغلال خيراتها (بن نبي مالك، 1981، ص:85)

وعن دور الصراع الفكري في البلاد المستعمرة يرى بن نبي أن الغزو الفكري هو المصدر الأساسي في جعل تلك الشعوب متخلفة، وأن الاستعمار من أجل تضليل الأفكار الصحيحة وتضليل سير الشعوب المستعمرة يطبق أفكاره المزيفة وفقا لمبدأين:

المبدأ الأول: يقضي بأن لا يكشف الاستعمار النقاب عن وجهه في المعركة، فهو دائما يستخدم قناع القابلية للاستعمار.

المبدأ الثاني: ناتج عن الأول في حيز التطبيق، إذ أن هدف الاستعمار لا يتعلق في الأساس بذات شخص معين، ولكن بأفكار معينة، يريد تحطيمها أو كفها حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المستعمرة (بن نبي مالك، 1988،ص:38). وعليه فمالك بن نبي حين اهتم بالإصلاح فإن ذلك يعني اهتمامه بالمشكلات المتعلقة بالحضارة وتغيرها وتبيين أسس نهضتها، فالحديث عن أسس المشروع الإصلاحي في فكر مالك بن نبي بشكل عام يعني أن نهضة البلدان الإسلامية يجب أن تنبثق من شعوبها وتاريخها، حيث يعتبر أن فهم النهضة على أنها نقل بعض أساليب العمل السياسي ومحاولة تطبيقها والسير على نهجها في البلدان الأجنبية، ونجاحها في بلدان المنشأ ومحاولة تطبيقها في البلدان الإسلامية يعتبر خطأ، لأن لكل مجتمع آلياته المحركة النابعة مما يسوده من أفكار وثقافة وقيم ...إلخ.

ويرى مالك بن نبي في هذا الصدد أن حل مشكلة الإنسان يكتمل في ثلاث عناصر هي :"توجيه الثقافة، وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال"، ويعتبر الإسلام هو الهوية الوحيدة القادرة على فتح مجال الإبداع والحكمة في مجال الفكر والعمل،

وفي ممارسة الجهاد بشتى أنواعه: ضد النفس أولا وضد المنكر في المجتمع لإعطاء الحق لأصحابه، وضد الطبيعة لتطوع مواردها لما فيه خير للجماعة، وأهم من ذلك عليه إشباع الجانب المعنوي والروحي في شخصية الإنسان لتأمين التوازن الروحي والمادي له.

كما يرى مالك بن نبي أن الإنسان الذي يعيش حالة استلاب فكري ثقافي أو حالة تسلط على عمله وسلوكه أو حالة نهب وهدر لثرواته دون أن يكون بمقدوره التدخل أو الاعتراض، سيتحول إلى طاقة مشلولة لأن الفكر النابع من واقعه الحضاري عطلت أثاره في توجيه كل ما في مجتمعه (السحمراني أسعد،1984، ص-ص:181-188).

وعليه حين نتمعن في الأفكار الإصلاحية عند مالك بن نبي، نلاحظ أن هناك ترابط فكري بين الفكر الثقافي والديني والتربوي والسياسي والاقتصادي، إلى درجة يصعب الفك بينهما أي فهم عنصر بعيدا عن الآخر يكون أمرا شبه مستحيل، نظرا للتلاحم المعنوي؛ وتتلخص أهم أفكاره الإصلاحية كالتالي:

ثالثا: أسس النهضة والإصلاح الاجتماعي في فكر مالك بن نبي

1- الإصلاح الثقافي والتربوي:

يصعب إلى حد كبير الفصل بين الثقافة والتربية عند مالك بن نبي، وأن نجاح العملية التربوية لا بد أن يستمد من الواقع الثقافي للمجتمع الذي تستهدف العمل فيه؛ فالثقافة مسؤولة عن التربية بكل وجودها وبالنسبة لكل إنسان، وبذلك يكون الالتزام بالتربية بقواعد الثقافة النابعة من الأرضية الفكرية للمجتمع هو الطريق الناجح لبناء الإنسان وتغيير ذاته.

إن "الثقافة الموجهة للتربية" هي ثقافة أصيلة نابعة من الواقع العقدي والفكري والاقتصادي والأخلاقي للمجتمع لأن البيئة هي رحم القيم الثقافية"، هذه الحقيقة الذي أدركها الاستعمار المتمثلة في أهمية الأثر الثقافي والتربوي في إعداد الأجيال واتخاذها مدخلا لتحقيق أهدافه، بناءا على هذه المعطيات، ندرك خطورة ما يجري في بلادنا، حيث الجو الثقافي المهمل متروك للفرد وما يمارس فيه من استلاب أصالة الشخصية.

وتتعرف الثقافة حسب بن نبي على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته (بن نبي مالك،2009،ص89).

والثقافة بمعناها التربوي تتحدد بهدفها وما تتطلبه من وسائل التطبيق، فأما الهدف يتمثل في كونها ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي. وعلى هدي هذه القاعدة تشتمل الثقافة في معناها العام على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعي الغنم والعالم، جمعا توحد بينهما فيه دواع مشتركة. وقد ضرب مالك بن نبي مثالا لإيضاح وظيفة الثقافة تمثل في تشبيهها بوظيفة الدم، الذي يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسد: فالثقاة هي ذلك الدم في جسم المجتمعي غذي حضارتهن ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة، وكل منهما منسجم في سائل واحد من

الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المتناسبة. وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر دورها التربوي، والذي يتألف من عناصر أربعة، يتخذ منها الشعب دستورا لحياته المثقفة:

1- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

2- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

3- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

4- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون (بن نبي مالك،2009،ص-ص:92-93).

يؤمن مالك بن نبي أن لواقعنا أساسا ثقافيا عربيا إسلاميا لا يمكن إعادة بناء حضارتنا على سواه، وأن الثقافة العربية الإسلامية يمكنها أن تقوم به لأنها قد قامت به في الماضي فعلا عندما كانت تهدي بإشعاعها من مراكزها في القاهرة وبغداد وقرطبة ...، وبهذا فهي قادرة وجديرة بأن تنهض اليوم بدورها كثقافة كبرى في العالم، فإذا ما أدرك المثقف العربي المسلم مشكلة الثقافة من هذه الزاوية فسوف يمكنه أن يدرك حقيقة الدور الذي يناط به في الحضارة القرن العشرين (بن نبي مالك، 1986، ص-ص: 86-87).

ونظرا لتزايد الحاجة لمواجهة المشكلة الثقافية يوم بعد يوم لأن الثقافة هي التي تهيئ المناخ الصحي اجتماعيا وتربويا لكي تقوم فيها ذات الإنسان، وعندها سيكون هذا الإنسان الجديد صانع الحضارة في المستقبل، فالروح التي تقبل الهوان وتتربى في محيط ثقافي اغترابي فيأتي عملها لصالح النفوذ الأجنبي، وإذا كانت الأعمال هي الوجه التطبيقي للأفكار فإن التحرر الفكري وإعداد للجو الثقافي المستقل هو الطريق إلى تقويم الأعمال، حيث أن أصالة الفكر والثقافة عنصر أساسي لأنهما يعدان الإنسان إعدادا جديدا متطلعا إلى التحرر في مجال السياسة والاقتصاد والعسكرية والتربية وكافة المجالات(السحمراني أسعد، 1984، ص-ص: 207-2012).

وقد أشار مالك بن نبي في أحد المحاضرات التي ألقاها في الجزائر أن مشكلة السلوك ترجع إلى الثقافة، ولكن هذه الثقافة يجب أن يتم تطويرها وإعدادها ضمن الإطار اجتماعي يشمل سائر المجتمع، ولا يقصر على صنف اجتماعي معين، هذا ما لاحظه مالك بن نبي "بإحداث تجربة تمت على ألمانيا وتجربتنا الخاصة بالجزائر منذ خمسين عاما التي احتك بها جيلنا خلال السنوات الواقعة بين عام 1940-1944م تثير أمامنا مشكلة الثقافة ضمن حدودها الصحيحة وفي صورتها التالية : كيف يتم إعداد ثقافة معينة؟ (بن نبي مالك، 2002،ص- ص: 78-79).

فمن أجل إعداد ثقافة معينة يتم من خلال "توجيه الثقافة" حيث يفسر مالك بن نبي "التوجيه" : أنه يمثل قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف، وبمعنى آخر يعني التوجيه، عملية منهجية ضرورية تتجنب الإسراف في الجهود والوقت، وتراعي في بداية الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة، وإن هذه التصفية لا تتأتى إلا لفكر جديد يحطم ذلك الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة.ن ويرى مالك بن نبي ضرورة تحديد الأوضاع بطريقتين:

الأولى: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي.

والثانية: إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل (بن نبي مالك، 2009، ص: 86). فالثقافة بهذا الصدد هي الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر "المجتمع التاريخي" وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع منذ البداية لنفسه، وتعد الثقافة من هذه الزاوية عاملا حضاريا تاريخيا بل وأيضا نظاما تربويا تطبيقيا، ويتألف هذا النظام أو البرنامج التربوي الذي يتخذه المجتمع دستورا لحياته الثقافية من عناصر أربعة يراها مالك بن نبي "المقومات الأساسية لنجاح المجتمع" وهي :

- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية وتحديد السلوك الجماعي داخل المجتمع.
- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام.
- المنطق العملي (بن نبي مالك، 2009، ص-ص: 94- 103).

والمناخ المطلوب بشكل عام من أجل إصلاح الثقافة في فكر مالك بن نبي هو الروح القرآنية التي فقدت أثرها العملي في حياة العرب والمسلمين، لأنهم فضلوا عنها في حالة ركود وجمود أو في حالة تقليد لمادية أوروبية، هذا المناخ الإسلامي يولد جوا ثقافيا ملائما لكل فرد يجد فيه "أناه" المفقودة بين السباق على التسلح والسعي للسيطرة على أوسع رقعة جغرافية واقتصادية، أما الثقافة المطلوبة ستتحقق الأمان للفرد أو الجماعة وتوجد الثقة بينهما بتحقيق النظرة العدائية التي أوجدتها ثقافات الكم الأوروبية (لحرش موسى، 2006، ص-ص:222-223).

"إنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذجه الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى: لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية، في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع" (بن نبي مالك، 2010، ص:78).

2- الإصلاح السياسي في فكر مالك بن نبي:

ينطلق مالك بن نبي في فكره عن الإصلاح السياسي من أن الثقافة والسياسة أمران متكاملان، ففي حل المشكلة الثقافية حل للمشكلة السياسية، لأن فساد الحكومات مؤشر دال على فساد الإنسان في المجتمعات التي تتولاها هذه الحكومات، فمواجهة الاستعمار وأعوانه وإصلاح الحكومات لن يكون إلا بتغيير الوسط الثقافي الذي تتحكم فيه القابلية للاستعمار(السحمراني أسعد، 1984، ص:207). وهو يقول في هذا الصدد: "لكن الحرب لا ينتصر فيها بالأسلحة المادية فقط، كالبندقية والمدفع أو حتى الطائرة. وأحيانا حتى يسيئ للانتصار العسكري الكبير تقصير (نقص) على الصعيدين الأخلاقي والسياسي. هذا أمر يشهد عليه التاريخ منذ القدم.

بعد أن انتصر هنيبعل في (كان)، وصل إلى أبواب روما، فصاح مجلس الشيوخ وقد اعتراه الهلع، صيحة الخوف التي لا تزال مدونة في كتب التاريخ: هنيبعل على أبواب روما ! . ولكن ملذات (كابوا) (كامبانيا) التي تراخى فيها ضباط هذا الاستراتيجي العظيم، وتقصيرات مجلس الشيوخ القرطاجي، أنقذت روما التي انتهت، بأن محت قرطاجة من خريطة الوجود

كما هو معروف. ولكن هذه العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية، تقوم بدور أكبر بكثير، في عضرنا الذي لا يتعلق فيه مصير الحرب بالجبهة فحسب، بل بالخطوط الورائية أيضا (بن نبي مالك، 2005، ص:24).

ويرى مالك أن أغلبية البلدان الإسلامية استوردوا أفكارا سياسية مقتبسة من الأفكار والنظريات الغربية، وهذا الاقتباس ليس في صالح هذه البلدان أو المجتمعات لأن تطبيقها يختلف عن ما هو عليه في مجتمعاتها الأم، ويقول في هذا الصدد:" إن الفكر السياسي الحديث في العالم الإسلامي هو في ذاته عنصر متنافر، فهو اقتباس لا يقف وحالة ذلك العالم، والمسلمون في هذا الميدان أو في غيره من الميادين لم ينقبوا عن وسائل نهضتهم بل اكتفوا بحاجات قلدوا فيها غيرهم وأشكال جوفاء من هواء (السحمراني أسعد،1984، ص: 209).

ويعطي مالك بن نبي مثال على ذلك "النظام الديمقراطي" حيث يرى أن الديمقراطية المطبقة في المجتمعات الغربية، على سبيل المثال "إنجلترا" لا يحميها دستور خاص إنما تحميها تقاليد الشعب ذاته وعاداته وأوضاعه النفسية وعرفه الاجتماعي...إلخ، فالديمقراطية إذن في أساسها ليست عملية تسليم السلطات تقع بين طرفين معينين- بين الملك والشعب مثلا- بل هي تكوين شعور وانفعالات ومقاييس ذاتية واجتماعية يشكل مجموعها الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية في ضمير الشعب، قبل أن ينص عليها الدستور، والدستور ما هو غالبا إلا النتيجة الشكلية للمشروع الديمقراطي عندما يصبح واقعا سياسيا يدل عليه نص توحي به عادات وتقاليد، ويمليه شعوره في ظروف معينة ولا يكون أي معنى لهذا النص إن لم تسبقه التقاليد والعادات التي أوحت به، أو بعبارة أخرى لمبرراته التاريخية التي دلت على ضرورته. فمثلا لا يسوغ لنا أن نعتبر الإسلام كدستور يعلن سيادة شعب معين ويصرح بحقوق وحريات هذا الشعب، بل ينبغي أن نعتبره في سياق حديثنا كمشروع ديمقراطي تفرزه الممارسة وترى من خلاله موقع الإنسان المسلم من المجتمع الذي يكون محيطه، وهو في الطريق نحو تحقيق القيم والمثل الديمقراطية بحيث ترتبط حركته التاريخية وفي صورة شعور عام ودوافع تكون المعادلة الإسلامية في كل فرد من المجتمع (بن نبي مالك، 2002، ص- ص: 144-145).

فمثلا نظرة النموذج الإسلامي إلى الإنسان هي نظرة إلى الجانب اللاهوتي فيه، بينما النماذج غير الإسلامية تمنحه النظرة إلى الجانب الاجتماعي، فالتقويم الإسلامي يضفي على الإنسان شيئا من القداسة، قيمته فوق كل قيمة تعطيها له النماذج المدنية الغربية، فهو في النص الإسلامي يشعر الإنسان بالتكريم في تقديره لنفسه والآخرين، لأن النزاعات السلبية المنافية للشعور الديمقراطي تبددت في نفسه (بن نبي مالك، 2002، ص-ص:146-147).

ويعطي مالك بن نبي أمثلة عدة عن المبادئ الديمقراطية في الإسلام، فمثلا عن قضية التكريم والتقويم الأساسي للإنسان يضم في خطوطه العامة مصير الرقيق إلى مصير الإنسان الحر، أي يضيف الرقيق إلى عالم الأشخاص بعد أن كان من عالم الأشياء، وذلك لأول مرة في التاريخ (بن نبي مالك، 2002، ص:151).

أما حرية التعبير فإنها دخلت في العرف منذ الأيام الأولى من العهد الإسلامي، فالنبي صل الله عليه وسلم كان يعود أصحابه على مناقشة آرائه وتقاريره كما هو الحال في استشارته للصحابة في الحروب وغيرها. فالمشروع الديمقراطي في المجال الاقتصادي يقوم على مبادئ عامة تهدف إلى توزيع الثروة حتى لا تصبح دولة في أيدي بعض المترفين، فعندما يقرر القرآن الزكاة فإنه يضع أساس تشريع اجتماعي عام قبل أن تدرج في العالم الأفكار الاجتماعية؛ فعلى هذه الاعتبارات وغيرها يصح

القول بأن الحكم الإسلامي ديمقراطي في مصدره وفي عمله، والإسلام يتضمن كل السمات التي تطبع الديمقراطية التي تحميه من جذور هذا الحكم (بن نبي مالك، 2002، ص- ص: 156-157).

وعليه فإن مالك بن نبي يعتبر تطبيق الدين الإسلامي يفوق بكثير ديمقراطية المستوردة في النصوص المدنية الغربية.

3- أسس الإصلاح الاقتصادي والنهضة الاقتصادية في فكر مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أنه إصلاح نظام اقتصادي لتطوير بلد معين لابد أن يكون نابعا من الواقع الجغرافي والتاريخي والبشري لهذا البلد، وبمعنى أدق لابد أن يكون موجها بثقافة وأفكار أصيلة تلامس الحقيقة الكامنة في الضمير الشعبي، وتراعي القيم السائدة في القانون العلاقات الاجتماعية، والسلوك الإنساني، وبعدها تراعي إمكانيات وكنوز الأرض المتوفرة .

وان التطور الاقتصادي التقدمي لا يكون بالاستعارة والشراء وإنما أصالة وإبداع نابعان من واقع المجتمع العربي الإسلامي وقدراته البشرية والمادية، ويقول "إن وطنا متخلفا لابد له أن يستثمر ما فيه من طاقات يستثمر كافة عقوله ووقته وكل شبر من ترابه، فتلك هي العجلة الضخمة التي يجب دفعها لإنشاء حركة اجتماعية واسمرار تلك الحركة(السحمراني أسعد، 1984، ص- ص :236-237).

أما التخلف الاقتصادي في نظر مالك بن نبي مبطن بتخلف ذهني، فالبلد المتخلف اقتصاديا يعاني بطالة في العقول تمنعه من السير إلى الأمام، فالتخلف بهذا المغزى يبدو عائقا للنمو والتنمية وكذلك نجد مالك بن نبي يقرر "إن من حقنا في بلد متخلف أن يصب معظم اهتماماتنا على جانب الاقتصادي" ويحدد مالك بن نبي أسباب التخلف كما يلي:

- إنعدام الفعالية.
- التخلف الذهني الفكري.
- في كون كفة الاستهلاك أرجح من ميزان من كفة الإنتاج.
- سوء الانتفاع بالوسائل المتاحة.
- إنعدام الوعي الاقتصادي.
- إنعدام الإدارة الحضارية.

وعليه فالتخلف في فكر مالك بن نبي حالة عرضية ستزول إن تم القضاء على أسبابها التي هي في متناول العالم الإسلامي أما التنمية الاقتصادية فيعرفها مالك بن نبي بأنها خطة تتبع للخروج من حالة التخلف إلى إقلاع الاقتصادي وهذا الإقلاع الاقتصادي ينطلق من مبدأ إنتاج أقصى ما يمكن من الغذاء، أي وسائل القوت لأنه يرى أنه لا يمكن تحقيق تنمية بطريقة مستقلة عن اقتصاد متين لتحقيق القوت ووسائل القوت تتمثل في الزراعة (حسن يوسف، 1428هـ- 2007م، ص- ص: 40-46).

ويرى مالك بن نبي بأن التنمية الاقتصادية والنمو الاقتصادي لا يعني أن نعير للمال سلطانا لم ينزل به الله، بتركيزه في أيد قليلة يتبعه انخفاض في مستوى المعيشة، ونقص من القوة الشرائية وإفقار الجماهير الكادحة، ليست المسألة بأن ينتزع منه كل

سلطان كذلك بإذابته في ضرب المساواة الطوباوية ويذهب بنجعه النافع في دفع الانتاج. فينبغي لنا أن نجعل للمال قيمة نسبية، ولكن ينبغي لنا أيضا أن نكشف النقاب عن مفهوم الانتاج؛ وقد لخص هذه الفكرة في الحكمة التالية:(نحن لنأكل، بيد أننا نهلك إذا لم نأكل). وبعبارة أخرى إن خطط التنمية أيا كان إلزامها الاقتصادي الذي نقدره حق قدره، ينبغي لها مع ذلك أن تطوي كشحا عن هذا الالتزام لضرورات عليا، حتى لا تهوى في الاقتصادانية، وهم أولئك الذين يضنون أنهم يحلون المشكلات البشرية كلها بسبل اقتصادية- يبدو أن العالم الاسلامي في هذه الآونة مصاب بهذا الداء، وهو داء نكأته الحربان العالميتان فانتقل من عدم الوعي الاقتصادي الشامل إلى الحصر الاقتصادي كأنما ليس للمسلم إلا سبيل واحد للتفتح، أن يكون بشرا اقتصاديا، وأن لا يكون غير هذا.

ولا يخفى علينا أن التعليم الاسلامي كله في القرآن والسنة يدعو إلى الحلول الوسطى دائما. فتوعية الإنسان الاقتصادي، يجب أن لا تجره إلى وثنية جديدة ليصير من عباد صنم جديد اسمه الاقتصادانية، أو حتى الاقتصاد (بن نبي مالك، 2000، ص- ص:40-41).

كما يدرس مالك بن نبي مشكلة حساسة تتعلق بالمواد الأولية ومشكلة تسويقها، ذلك أن الوضعية السائدة في العلاقة بين العملة والمادة الأولية، حيث الأولى متسلطة على الثانية، فمن حوزته العملة أي "البلدان المتقدمة" هو الذي يحدد سعر شراء من الذي في حوزته المادة الأولية، ولحل هذه المشكلة ينصح مالك بن نبي بإتباع طريقتين ناجعتين لتحرير المادة الأولية من استغلاله العملة.

- طريقة المقايضة: ويتم إما بمقايضة أو استبدال مادة أولية بمادة أولية أو مقايضة مادة أولية بتجهيزها صناعي.

- طريقة التكتل: بالنسبة للبلدان المتخلفة المالكة للمواد الأولية بحيث توحد هذه البلدان أسعار المواد الأولية في الأسواق العالمية فتنقذ نفسها من سياسة المساومات، ومن بخس قيمتها الشرائية في السوق ومن تسلط واستغلال العملة للمادة الأولية (بن نبي مالك، 2000، ص:52).

كما أشار مالك بن نبي على استيراد النظريات السياسية من الغرب، يشير إلى فشل الأنظمة الاقتصادية الشيوعية والرأسمالية، حيث يقول: لقد سقطت نظريات وحدانية المادة والاقتصاد في تشكيل شخصية الإنسان والمجتمع كما في البلدان الشيوعية الشرقية، فأصبحت مقولات الحرية والعدالة عندهم مجرد نظريات كما في البلدان الغربية تقع في الكتب، وتبين أن الإنسان المبدع يتوقف عليه عمران الأرض، وبهذا يكون التخطيط والعمل للتقدم الاقتصادي ليس قضية إنشاء بنك وتشييد مصانع فحسب بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات(السحمراني أسعد، 1984، ص:239).

وعلى هذا النحو يشير مالك بن نبي مثلا إلى أن حل مشكلة الإنسان يتكامل في ثلاثة عناصر أساسية هي: توجيه الثقافة، توجيه العمل وتوجيه رأس المال.

إن العمل وحده هو الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي، وعلى الرغم من أنه ليس عنصرا أساسيا كالإنسان والزمن والتراب، إلا انه يتولد من هذه العناصر الثلاثة، لا من الخطب الانتخابية أو الوعظية.

إن فكرة توجيه العمل تعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد الراعي، وصاحب الحرفة، تاجر، الطالب، العالم، المرأة، المثقف، الفلاح...، لكي يصنع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء (بن نبي مالك،2009،ص-ص:113-114).

أما رأس المال فتوجيهه وهو لايزال في طور التكوين في بلادنا لا يتصلّ أولا بالكم بل بالكيف، فإن همنا الأول أن تصبح كل قطعة مالية متحركة متنقلة تخق معها العمل والنشاط، أما الكم فإن له الدور الثاني دور التوسع والشمول (بن نبي مالك،2009،ص:120).

هذا وقد أشار مالك بن نبي إلى مبادئ الملكية في الإسلام، حيث أن المعنى المباشر للملكية هو الله الخالق الأوحد المالك لكل شيء، وجميع البشر يتصرفون على تلك الملكية للموارد ويكون لديهم السلطة عليها بقدر ما يطبقون مشيئته وإرادته، فالإسلام يحقق التوافق بين الرأسمالية الشيوعية تحت مالك واحد هو الله. كما أشار إلى بعض القواعد الاقتصاد الإسلامي مثل الزكاة وأهميتها في توزيع الدخل والثروة وأحكام تحريم الربا... (لحرش موسى، 2006، ص: 252-263).

وفي مجمل القول يرى مالك بن نبي أن التخطيط الاقتصادي الجديد الذي ينبع من إرادة الحضارة في الروح الإسلامية، يتطلب من المسلم أن يتجنب نفسه البدع والمحادثات وأن يقلع من الخرافات الداخلية والالتزام بالأسس التي تناسب الروح الإسلامية الآمرة بالعمل والتعقل، وبعد ذلك أن يطرح جانبا نظريات الغرب الاقتصادية التي قدمت المادة على الإنسان والحكم على الكيف، لأنها لن تجديه إلا مزيد من التسلط الاستعماري والتخلف الاقتصادي، والانحدار الخلقي، والعمل على التمسك بالقواعد الإسلامية الراقية (السحمراني أسعد، 1984، ص:241).

وفيما يخص التخطيط التنموي العام يقول مالك بن نبي –وقد خص حالة الجزائر–: التخطيط في بلد في طور النمو يهدف أساسا إلى تحريك كامل طاقاته، وموارده البشرية والمادية تحريكا يؤدي إلى خلق ديناميكية اجتماعية.

وبابتعاد أحد عناصر هذا التخطيط، مهما كان ضئيلا عن المقياس العام للمجموع، أو عن القواعد الأخلاقية اللازمة للعمل الجماعي لا يمكن بالنتيجة إلا أن يؤثر تأثيرا سلبيا على توازن الديناميكية التي يراد خلقها.

فبرنامج التنمية لبد ما كالجزائر مثلا تكون سائر فرص النجاح لديه مسجلة مسبقا في منهجيته التخطيطية وفي نوعية خطته التقنية والأخلاقية (بن نبي مالك، 2005، ص:31).

وقد لخص الدكتور أسعد السحمراني معالم النظرية الاقتصادية في فكر مالك بن نبي كالتالي:

- ضرورة بلورة تخطيط اقتصادي نابع من إجهاد مستند من الإسلام ورفض الاستعارة أو نقل سواء للشيوعية أو الرأسمالية.
- اعتماد الإنسان عنصر الأساس في أي تخطيط، مما يرتبط بنظرة اقتصادية تقدم الرأسمال الاجتماعي في عملية التنمية على الرأسمال المادي.
- توفير القوة لكل الناس لأن ذلك يساعد على استغلال الشخصية من أي أهمية.
- التساوي بين الناس في الواجب والحق لتردم الهوة وتلغي الطبقية.

- تنشيط القطاع الزراعي، وعدم الاعتقاد خطأ أن التقدم الاقتصادي يعني التصنيع فقط.
- التكامل الاقتصادي العربي والوحدة بديل عن التجزئة.
- تقنين الصرف وعدم الهدر لرؤوس الأموال في شراء المنتجات الاستهلاك لأن تكديس هذه الأشياء لن يحدث تقدما اقتصاديا.
- تحديد الأطر الثقافية التربوية التي تعد الأجيال لأن الثقافة بما تنبع من أفكار هي التي توجه الإنسان والعمل والرأسمال.
- البناء الاقتصادي يقوم على الإنسان الذي يحول نشاطه إلى وظيفة اجتماعية، وعلى التراب بما فيه من خصب الزراعة والثروات والخامات وعلى حسن الاستفادة من الوقت(السحمراني أسعد، 1984، ص-ص: 252-263).

خاتمة :

مالك بن نبي المفكر والمصلح الاسلامي الجزائري تمكن من تحليل الواقع الاجتماعي، الثقافي، التربوي، السياسي والاقتصادي، انطلق من المنهج والنص الإسلامي حتى يعطي لنا الأسس والمبادئ التي تنهض بها المجتمعات الراقية، إن المعطيات الاصلاحية التي وضعها مالك بن نبي والتي تحدد وفق الثقافة والتربية والأخلاق، كما أطلق عليها بالتوجيه الثقافي، القاعدة الإصلاحية الأساسية وإنما يقصد بالتوجيه الثقافي تلك القواعد التي تحدد سلوكنا وقيمنا وتربيتنا ومن ثم تحدد أساليبنا في النهضة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية جمعاء؛ وتفسر أن التغير انما ينبع من النفس الإنسانية وتهذيبها وفق التوجيه الثقافي والتربوي الاسلامي المحض.

ويؤكد مالك بن نبي في أن استخدام المدخل الاسلامي لتشخيص النهضة والإصلاح في المجتمعات العربية والإسلامية، لأن الإسلام هو الذي يؤمن الوقاية من القابلية للاستعمار بثوبه القديم أو الجديد، وأن الإسلام هو المنقذ الوحيد للحرية والديمقراطية بمعناها المثالي بل يتعدى ديمقراطية الغرب، وأن الإسلام هو المنجد والحل الوسطي لكل الأنظمة الاقتصادية التي أنتجها الفكر الاقتصادي الإنساني.

من ثم فالتمسك بالقيم والمبادئ الدينية سيحفظ لنا كرامتنا ونهضتنا وهويتنا ومن ثم ستحقق المجتمعات الإسلامية بما آلت إليه من تخلف سبل إصلاحها.

قائمة المراجع:

1. بن نبي، مالك (1981)، وجهة العالم الإسلامي، دمشق: دار الفكر.
2. بن نبي، مالك (1986)، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر.
3. بن نبي، مالك(1988)، الصراع الفكري في بلاد المستعمرة، ط3. دمشق: دار الفكر.
4. بن نبي، مالك (2000م)، المسلم في عالم الاقتصاد،دمشق: دار الفكر.
5. بن نبي، مالك (2002)، القضايا الكبرى، بيروت: دار الفكر.
6. بن نبي، مالك (2005)، من أجل التغيير، دمشق، سوريا، دار الفكر.
7. حسن، يوسف (2007م)، سبيل الخروج من التخلف إلى التنمية في العالم الإسلامي عند مالك بن نبي، أعمال الأسبوع الوطني السابع للقرآن الكريم، الجزائر: منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.
8. بن نبي، مالك (2009)، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط9، دمشق: دار الفكر.
9. بن نبي، مالك (2010)، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصابور شاهين، سلسلة مشكلات الحضارة، دمشق، دار الفكر.
10. خفاجي، محمد عبد المنعم (2002)، الإسلام وبناء المجتمع،مصر: دار الوفاء.
11. السحمراني، أسعد(1984)، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا،لبنان: دار النفائس.
11. العبدة، محمد، (2006)، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، سلسلة علماء ومفكرون معاصرون، الجزء31، ط1، سوريا، دمشق، دار القلم.
12. لحرش، موسى(2006)، استراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر.